أهل زمان

بقلم: جاذبية صدقى

تأخر القطار . فاشتريت سميذة وقطعة جبن بآخر قرشين معى — قطعة جبن لا فرق بينها وبين ما يعمرون به مصايد الفئران . قديمة ورائحتها نفاذة وتغطيها طبقة عنكبوتية خضراء . اخذتهما وجلست بهما على مقعد خشبى متهالك فوق أفريز المحطة . فجاءنى يتشمم ... ويتسكع .. ويحك جنبه برجلى .. ويلسع قدمى بأرنبة أنفه المبللة كلب أجرب يجر وراءه ساقا لا خير فيها . فقلت فى سرى :

— « يا فتاح يا عليم ! » .

ودسست السميذة تحت ابطى اخفيها بطرف سترتى . اما الجبن فخبأتها فى جيبى . ما لى انا ؟ أنا جوعان .

فرفع الىّ عينين ذليلتين تطرفان بكل بؤس الدنيا وشقائها . وهز ذيله . او حاول ان يهزه . فلما وجد أن ذلك مجهود فوق ما يحويه بدنه الهزيل من طاقة أطرق بانكسار . فملأنى شفقة على ذلك المخلوق الذى انتهى أو كاد . لكننى أنا الآخر انتهيت أو كدت . أربعون سنة وانا اشقى .. وأتعب .. وأجرى هنا والهث هناك وراء لقمة عيش اسد بها افواها سبعة وأمهم ... ثمانية

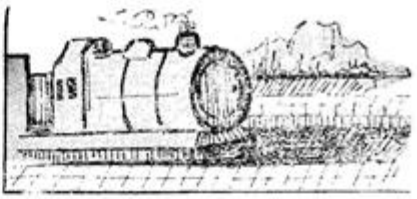

افواه غير فمى أنا الذى كانت زوجة أبى تشبهه بالبالوعة التى لا مثيل لها . فهى لا تنسد ابدا ... تشفط كل ما يأتى فى دائرة عملها ــ وأبعد من ذلك بكثير . وكبر الأولاد : خمسة صبيان وبنتان . وحرصت على تعليم الصبيان حرفة والبنات شغل الابرة . وزوجتهم كلهم وجهزتهم : البنات بجهاز وصيغة ... والصبيان بمهر . ولما اطمأننت عليهم كلهم فى بيوتهم تنفست الصعداء وفركت كفى والفرحة ترعشنى أنتقى بيتا من بيوت اولادى السبعة اعيش فيه بقية عمرى بعد ان ماتت أم الأولاد . فهل رحب بى احدهم ؟

هانذا على طوار المحطة .. فى هلاهلى .. وسميذة وقطعة جبن عفنة تحت ابطى أقضم منها وآكل .. فى انتظار قطار الصعيد الذى سيرحلنى الى القاهرة . ماذا سأفعل هناك ؟ لا أدرى . ومن خلقك . ابدأ من جديد .. على ما أعتقد . عمل جنونى ــ لا شك . من جانبى . عمل غير مضمون العاقبة ... وانا أبو السبعين سنة أحملها على كتفين هما وعصا عفريت « المقاتة » سوداء . ولكن ... ماذا كان فى وسعى ان افعل ؟ لم اعد مرغوبا فى . استنفدت قواى ومالى ــ شيئان يحببان الخلق فيك . يجعلانك ذا فائدة ما . أما انا ... النهاية . نبذنى اولادى . ربما طقطقت لسانك ورميتهم بالعقوق .. بل ربما لعنتهم . لا .. لا . لا تتسرع . دعهم . ربنا يفتح عليهم . هم يجارون زمانهم . زمن لو اقرأت فيه جارك السلام لرماك بنظرة مستريبة .. متشككة . ربما تضمر طلب شىء منه .. فيجيبك متغصبا متحفظا .. لا يعطيك الريق الحلو حتى لا تطمع فيه . وقد تعلمت ذلك أنا ايضا ــ ولو متأخرا . فاخفيت عشائى عن ذلك المخلوق الأجرب الذى جاء يحتك بى لعلى اعطيه قطعة من عشائى .. الذى ربما كان افطارى أيضا . فمن يدرى متى أتحصل على قرش آخر ؟

طفقت أدس يدى تحت ابطى واقتطع من السميذة نتفة ألقيها فى فمى خلسة والحقها بنتفة اخرى من الجبن ــ والعينان الذليلتان الجائعتان تتابعان كل حركة من يدى ... كل مضغة من شدقى . فشعرت بضيق . كنت جائعا لا أريد أن

يشاركنى أحـــد طعامى ولو بنظرة . فطردته بقدمى . فانطرد . مشى خطوتين مرتعشتين ثم جلس .. بل انه ارتمى يلهث وقـــد تدلى لسانه كأنه آت من مشوار بعيـــد ورأسه على ذراعيه .. وعيناه متشبثتان بيدى وهى تسترق نتفة من السميذة وتلقيها فى فمى .. ثم تبحث فى جيبى الشـــمال برهة وتخرج بنتفة من الجبن تلحقها بالسميذة .

وأكلت نصف السميذة عندما طرق سمعى حديث بين كهلين لمحتهما بطرف عينى يمشيان متساندين الى أريكة خلفى ثم يجلسان متربعين فوقها .

كان أحدهم يقول :

ـ « كانت الدنيـــا دنيا بحق ... زمان ! » .

فتنهد زميله :

ـ « هيه ... أيام ! » .

ـ « اتذكر الحاج « رفاعى » تاجـر الحرير ؟ » .

ـ « أذكره ؟ ألف رحمة تنزل عليه ! كان مولاى وولى نعمتى » .

كان كبير تجار زمانه ولا ينافســـه الا الشيخ « سويلم » ! .

فطقطق الآخر يهش تلك السيرة كأنها ذبابة :

ـ « دعنـــا من سيرته .. كان تاجر جميل . لقد كان على ثرائه الواســـع بذىء اللســـان لا يفهم أن المنافســـة لا تستدعى الحط من كرامة منافسه ! »

فواصله زميله وهو يلوك ... يخرج الـكلام من جوفه ويمضـــغه كالبقرة العجوز :

ـ « معك الحق . ولـكن ماذا تقول فى النفوس ؟ شـــد ما قاسى « الحاج رفاعى » من لسان « الشيخ سويلم » : أتعرف حكايتهما ؟ » .

ـ « أعرفها ولكن قل ... نتسلى : »

ـ « كان « الحاج رفاعى » يقيم فى حى الدرب الأحمر .. حى كبار القوم وأثريائهم . وقد بنى جامعـــا فرشه بالبسط وأناره بالشمعدانات وأجـرى عليه مالا . وكان يصلى فيه كلما وجد لديه الوقت . لكنه كان يحرص على صلاة الجمعة حرصه على عينيه . فاذا نودى للصـــلاة وجـدته على رأس المصـلين وما تنتهى الفريضـــة حتى يبمم وجهه شـــطر بيته وقد اصطحب معه امام الجامع ... ومقرئه .. ومن صلى عن يمينـــه .. ومن صـــلى عن شماله فى يومه . ويجلسون .. خمستهم .. فى صحن الدار أمام صينية عامرة بما لذ وطاب ! » .

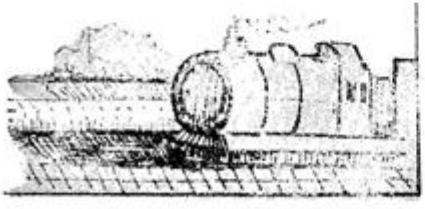

فقاطعـــه الكهل الآخر يتلمظ عن فم اهتم مطبق :

ـ « عارف يا سيدى .. عارف ! لكم اكلت معه . كنا نتقاتل على الصلاة على احد جانبيه .. ثم صرنا نتفق فيما بيننا على من يقع عليه الدور ... بل وصل بنا الأمر الى أننا كنا نبيع دورنا بمبلغ لا يستهان به لطامع فى التقرب الى كبير تجار الحرير ! » .

ومنظر عجائز يتحدثون طريف للغاية . فانت لا تكاد تجد فرقا يذكر فيه بين رجال ونســـاء . فالظاهر أن مع أرذل العمر تختفى فوارق الجنس فتتشابه السحن ... وتعجف الأبدان .. ويتهدل الشعر أبيض على الجبين والصدغين . والعجوز تجده يفضل أن يتكوم متربعا يطوى ساقيه ويجلس فوقهما وهو يلملم ذيل جلبابه حوله بحرص دون وعى .. كأنما يتم على ما سيخرج به من دنياه : كومة عظام ناشـفة تغطيهـا خرقة من نسيج . كذلك فعل عجوزانا تربعا فوق الأريكة ... تلك الليـــلة من شـــتاء « أسيوط » .. على طوار المحطة الضئيل النور . وكان كل منهما يغطى دماغـه بكوفية لم يلفها كالعمامة بل أسدلها على جانبى رأسه كالخمار . فلم يكن يميزهما عن امرأتين عجوزتين ســـوى شارب منتوف وصوت أجش ـ وان شاركت بعض العجوزات الرجال هاتين الصفتين ايضا .

وانا أحب الحكايات . لم أكن كذلك فى شبابى . كنت أضيق بكثرة الكلام . لم يكن لدى الوقت ... ولا البـــال . لـكننى الآن صرت أحبهـــا ... أعنى الحكايات . ارتددت طفلا لى بال طويل وشغف بســـماع تفاصيل مطولة .. معقدة .. تلف بى .. وتدور .. قبل أن توصلنى الى نهاية القصة . فتربعت على أريكتى الخشبية ذات الضـــلوع الصلدة . وشـــعرت بفرح خفى لأنى سأستمع لحـكاية . ففرقعت باصبعين أنادى الكلب الأجرب . فجاءنى مهرولا يجر ساقه التالفة . وربض عند قدمى مستأنسا بعد أن رمانى بنظرة ممتنة . لكننى لم أعطه لقمة الى هنا ... ولا ! فألقى برأســـه على ذراعيه .. لا بيأس قاطع .. بل بشىء من الأمـل وقـــد خطا تلك الخطوة : سمحت له بالجلوس قربى ... فى دائرة تفوح فيهـا رائحة السميذة .

أشرعت أذنى . فسمعت الكهل الأول يقول :

ـ « واستمرت المنافسة على أشدها بين التاجرين حتى كان يوما دخل فيه « الحاج رفاعى » مسجده فهاله أن لمح « الشيخ سويلم » بين المصلين . فلم ينبس بشفة بل احترم بيت الله . لكنه لم يطأه بقدم منذ ذلك اليوم . فلما سئل فى ذلك أجاب :

ـ « لقد دنسه كلب ! » .

وبلغت العداوة أشدها بين الرجلين الى أن سافر «الحاج رفاعى» الى «الحجاز» ليؤدى الفريضة للمرة السابعة . وقد جهزته نساء بيته بالزاد والزواد ورحل مع قافلة من قوافل الحجاج على ظهور الجمال وغاب ما يقرب من ستة أشهر »

فقاطعه زميله العجوز وهو يحك قفاه متلذذا :

ـ « هيه .. ؟ وبعد ؟ » .

فاستطرد الآخر وهو يدلك قدميه فى بحبوحة وبلا أدنى عجلة كأنما يمتد الوقت أمامهما فسيحا ... بلا نهـــاية .. ساعات ... أياما .. بل عمرا بحاله :

ـ « سألتنى يا ســـيد . استراح « الحاج رفاعى » يوما فى داره ثم قام يلف على أهل البيت فى أضرحتهم يتلو الفاتحة ويوزع الصـدقات . وركب عربتـه ـ التى يجرها زوج من الخيـل « المسـكوفى » الأصـيل سـار يتبختر بخطوات مرنمـــة نشوانة فى الشوارع والحوارى . حتى اذا وصل الى ضريح « السيدة » لمح الحاج عبدا وقورا وقد انتبذ زاوية ووضع أمامه منضدة صغيرة عليها صحون مترعة بالمهلبية .

فاضطرب قلب « الحاج رفاعى » ولم يصدق عينيه . فهبط من عربته مهرولا ووقف فى صف المشترين حتى اذا واجه العبد وتحقق منه صاح :

ـ « مرجان أغا ؟ » .

فارتعشت الشفة السوداء وصاحبها ينكس رأسه ويغمغم فى صوت كسير :

ـ « نعم يا سيدى ... أنا ! » .

فتأثر الرجل .. وقلبه يزاحم لسانه :

ـ « وماذا ... ماذا تفعـــل هنا ؟ كيف .. آه كيف تقف تلك الوقفة ؟ » .

فرفع الزنجى عينين بائستين الى وجه « الحاج رفاعى » :

ـ « أبيع مهلبيـــة تطهوها سيدتى لنتعيش من ثمنها ! » وهز رأسه يجيب الأسى الحائر الذى غشى وجه الحاج .. وقال فى صوت متهدج :

ـ « نعم مات .. مات ســـيدى « الشـــيخ سويلم » وبلعت الـديون امواله ! » .

فانقض « الحاج رفاعى » على جيوبه ينتزع منها بأيد تنتفض ما دسه فيها من أكياس جنيهات ذهبية وألقاها على صينية « الأغا » .. ثم سحبه من ذراعه ودفع به داخل عربته .

والهب الحوذى ظهور الجياد .

فالتفت الزنجى الى « الحاج رفاعى » الجالس جنبه يحملق أمامه ويكاد يختنق بمشاعره . وهمس :

ـ « سيدى ... ان دموعك تتساقط من ذقنك ! » .

لم اسمع أنا أكثر من ذلك . فقد انتهت الحكايه ... على ما أعتقد .

فتسمرت مكانى اتامل الكلب الأجرب ... وافكر فى اولادى وافعالهم فغشيتنى نشوة .. اى والله .. نشوة تزحف على بدنى .. وعقلى .. وقلبى كاننى انا ذلك التاجر . نشوة عجيبة منعشة كانها سحابة خيرة جيدة مثقلة

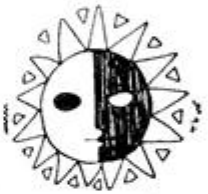

بالماء تزحف حثيثا وتكنس امامها ركام الأتربة التى تملأ الجو .. وتعبق القلوب ... وتطبق على الصدور !

فسحبت بقية السميذة من تحت ابطى والقيتها بشهامة الى صديقى الأجرب . فهوى عليها يحتضنها بكلتا ذراعيه ويعمل فيها أسنانه نهشا وقضما وبدنه يرتعش من لهفة .

وجاء القطار . جاء يصفر ويعفر . فهرولت أزاحم الخلق بعصاى ومرفقى . والقيت بلفة ثيابى من النافذة وتسلقت خلفها .

ووقف القطار يلهث ويلتقط انفاسه وقلبه يدوى بعنف . واسقوه ماء كثيرا حتى ابترد . فزعق بصوت مبحوح يعلن استعداده لمواصلة الرحلة .

فزاحمت أنا مرة أخرى ... داخل العربة ... الجالسين والواقفين .. أدفع هذا .. واجذب ذلك ـ لا لأجد لى مكانا بل لأصل الى الشباك اطل منه على صديقى ... الكلب .

وتراجعت عن الشباك .. ومشى القطار .. وانا ابتسم بهناء ... والأمل يملؤنى .. والدنيا حولى تتراقص فيها الفرص . ساجد عملا وسقفا فوق راسى ... وساملأ بطنى طعاما بل اننى .. نعم نعم .. سأرسل نقودا الى « البلد » كلما احتاج أحد أولادى وطلب منى . فستتحسن الأمور .. لابد .. امور كل الناس .. كلهم كلهم !

فدسست يدى فى جيب سروالى المرتق .. ودفعت بطربوشى الكالح فوق جبهتى وانا اصفر بفمى صفيرا مرحا ..

فقد رايت الكلب يهز ذيله !